

جزيرة جربة تحت حكم عائلة السَّمُومَنِي (688-967هـ/1289-1560م)

Djerba Island under the rule of the AL-Samoumni family

(688-967AH/1289-1560AD)

د.صالح الزرويل*

جامعة غرداية(الجزائر)

salah.zerouil@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/29 تاريخ القبول: 2023/02/19

● الملخص:

تناولنا بالبحث تاريخ عائلة السَّمُومَنِي الجربية التونسية، وهي من أشهر العائلات الثلاث التي توارثت حكم جزيرة جربة إلى جانب عائلة بن جلود، وعائلة بن عياد، فقد كانت عائلة سياسة ورياسة وعلم وكياسة، ولها دور مشهود في مقاومة النصارى الإسبان، إذ ارتبط اسمها بنظام العزابة، الذي مكّن للسلطة نفوذا توارثته منذ ق 7هـ/13م، وقد دام حكمها أكثر من ثلاثة قرون إذ استمر إلى غاية سنة 967هـ/1560م، تاريخ وفاة آخر حكامها وهو: الشيخ مسعود بن صالح السَّمُومَنِي، واشتهر بنو سمومن أيضا بالعلم، إذ العلم والمشيخة مقترنان عند الإباضية، كما أنها أسست بعضا من جوامع الجزيرة وبالأخص جامع الشيخ وجامع الغرباء، ونروم بذلك التعرف على أعمال الحكام من العائلة داخليا وخارجيا، فمن هي عائلة السَّمُومَنِي؟ وما هي أهم إنجازات أفرادها في جربة داخليا وخارجيا؟ ولتبيان ذلك وجب استعمال منهج وصفي وتحليلي للكتب والمصادر التاريخية الإباضية للوقوف على تاريخ العائلة السَّمُومَنِي وأدوارها، ومن النتائج المتوصل إليها باختصار هي أنها استطاعت الحفاظ على الجزيرة سياسيا، وعلى المذهب دينيا وعلى الوحدة اجتماعيا، ضف إلى ذلك وقوفها ضد الغزاة الطامعين فيها وفي خيراتها، كما ندعو إلى البحث في تاريخها السياسي والاجتماعي في الجزيرة.

● كلمات مفتاحية: عائلة السَّمُومَنِي، جزيرة جربة، الإباضية، المشايخ، العصر الوسيط.

Abstract:

In this intervention, the researcher dealt with the history of the Tunisian Djerba Al -Samoumni Family, which is one of three most famous families that inherited the rule of the island of Djerba, along with the Ben Djalloud family, and the Ben Ayad family. The system of celibacy, which enabled the authority to influence it inherited since 7 AH / 13 AD, , and its rule lasted for more than three centuries until the fall of the Hafsids state in 1560 AD, The date of the death of the last of its rulers, which is: Sheikh Masoud ben Saleh Al-Samoumni, and Banu Samoumen was also famous for knowledge, as science and the sheikhdom are associated with the Ibadis, and they also founded some of the island's mosques, especially the Al-Sheikh Mosque and the Al-Ghouraba mosque, and thus aims to identify the actions of the rulers from the family internally and externally. Is the poison family? What are the most important achievements of its members in Djerba internally and externally?

To illustrate this, it is necessary to use a descriptive and analytical approach of Ibadi historical books and sources to find out the history and roles of the Al- Samoumni family, and one of the conclusions reached in brief is that it was able to preserve the island politically, the religious doctrine and social unity, in addition to its standing against the greedy invaders in it and its bounties.

Keywords: Smoumni Family, Djerba, Ibadit, Sheikhs, middle age.

● مقدمة:

بما أن العلم كان متوارثا بين العائلات في جربة مثل: عائلة الشماخي والباروني والتلاتي، فالسياسة والحكم كانا متوارثين أيضا بين بعض العائلات، وسعى الإباضية للحكم الذاتي لجزيرتهم بعيدا عن الانضواء تحت حكم الدول المتعاقبة، أو تحت التبعية الاسمية لها في أحسن الأحوال، لعدة اعتبارات منها المذهبية والاجتماعية والاقتصادية.

كانت إرهابات حكم الجزيرة قبل قيام حكم العائلات لها، ولو عدنا قليلا إلى القرن السادس الهجري، الثاني عشر للميلاد، لوقفنا على حروب وفتن جعلت نظام العزابة يضعف مما تسبب في قلة العلماء، ونفور التلاميذ من القدوم إليها؛ في المقابل كان الجميع يشعر بخطر الأجنبي فوقف مجاهدا للدفاع عن جزيرته، فقد تعرضت لهجوم النصارى في فترات متتالية، ولم تتخلص منهم إلا في فترة متأخرة، فكانت تتأرجح بين استيلاء النصارى والموحدين والصنهاجين عليها.

كانت عائلة السمومني الجربية التونسية من بين تلك العائلات التي تولت حكم الجزيرة حكما وراثيا، وهي من أشهر العائلات الثلاث التي توارثت حكم جزيرة جربة إلى جانب عائلة بن جلود، وعائلة بن عياد، فقد كانت عائلة سياسة ورياسة وعلم وكياسة، ولها دور مشهود في مقاومة النصارى الإسبان، إذ ارتبط اسمها بنظام العزابة، الذي مكّن للسلطة نفوذا توارثته منذ ق7/13م، وقد دام حكمها أكثر من ثلاثة قرون إلى غاية سنة 967هـ/1560م، تاريخ وفاة آخر حكامها وهو: الشيخ مسعود بن صالح السمومني، ونروم من خلال البحث التعرف على أفراد العائلة الحاكمة، وأهم منجزاتهم داخل الجزيرة وخارجها، ولتبيان ذلك وجب سلوك منهج وصفي وتحليلي للكتب والمصادر التاريخية الإباضية للوقوف على تاريخ العائلة السمومنية وأدوارها، ومن النتائج المتوصل إليها أنها استطاعت الحفاظ على الجزيرة سياسيا، وعلى المذهب دينيا وعلى الوحدة اجتماعيا، ضف إلى ذلك وقوفها ضد الغزاة الطامعين فيها وفي خيراتها، فسدت العائلة بحكمها للجزيرة ثغرة زمنية ومكانية هامة في تاريخ إفريقية والمغرب الأدنى.

1. تاريخ جربة السياسي تحت الحكم العائلي:

استقرت بجزيرة جربة منذ القرن الثاني للهجرة بطون من قبائل بربرية مثل: هواره ولوارة وكتامة¹، إلى جانب كل من لماية وزواغة بجربة منذ ق5/11م²، وتقلبت الجزيرة في علاقتها بالسلطة المركزية بين عدة أنواع من الارتباط الحكمي بالعاصمة، من التبعية الكاملة والتبعية الرسمية الصورية، والاستقلال الداخلي، والاستقلال التام، وكذلك الخضوع للأجنبي، فكانت تابعة للبلاد التونسية، وفي بعض الفترات لأتراك طرابلس حتى ألحقها حمودة باشا المرادي نهائيا بتونس منذ بداية حكمه سنة 1631م، واضعا بذلك حدّا لاستغلال باشا طرابلس للجزيرة خاصة سنتي 1568م و1598م في عهد إبراهيم باشا وخضعت بالتالي تباعا للدولتين المرادية والحسينية.

و تمتعت الجزيرة على امتداد تاريخها إلى أواخر العهد الحفصي باستقلالها الذاتي عن السلطة المركزية التابعة لها، وتداول على حكمها ثلاث أسر هامة من أبنائها، وهي عائلة السمومني وبن جلود وبن عياد، وكانت المشيخة فيها تنقسم إلى مشيخة العلم

1- الشريف الادريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة معهد الدروس العليا الاسلامية بالجزائر، الجزائر، 1957، ص 95، محمد أبو راس الجربي: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق محمد المرزوقي، منشورات المعهد القومي للأثار، تونس، 1960، ص33.

2- محمد حسن: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، جامعة تونس الأولى، 1999، ص139-141.

والشوري، ومشيخة الحكم، ينتخبهم مجلس العزابة لتنفيذ قرارات هذا المجلس وأحكامه، وقد اتخذوا لأنفسهم قصورا يسكنونها ويجلسون فيها للحكم وفيها يسجنون المجرمين والمتمردين¹.

مثّلت الأسرة "السمومنيّة" أولى تلك الأسر الحاكمة للجزيرة، ودام حكمها أكثر من ثلاثة قرون حتى سقوط الدولة الحفصية²، وارتبطت بنظام العزابة الذي مكن لمؤسسة الحكم نفوذا توارثته هذه العائلة منذ القرن 7هـ/13م، وانتهى عهدهم سنة 1558-1559م، تاريخ وفاة آخر حاكم من العائلة وهو الشيخ مسعود بن صالح السمومني، ثم برزت عائلة بن جلود لتستقل عن النظام المحلي ولتصبح أداة للنفوذ التركي، فتواصلت مشيخة بني جلود منذ سنة 967هـ/1560م، وكان أحمد بن جلود حاكما بأمر محمد الرشيد باي سنة 1172هـ/1759م، ولم يمكث في الحكم سوى سنة واحدة ثم عُزل، فتولى مكانه سعيد بن صالح بن جلود ودام حاكما إلى سنة 1215هـ/1798م، وبوفاته انقضت إمارة أسرة بن جلود، فهدمت قصورهم وباعوا حطامه، ولم يبق من دارهم أي أثر لهم³، وبداية من ذلك التاريخ انتقلت عاصمة الحكم من حومة والغ إلى حومة صدغيان بالجزيرة، وتوقفت مؤسسة المشيخة وأحدثت مكانها مؤسسة القائد، وانتقل النفوذ إلى عائلة بن عياد التي تولت زمام الأمور بعدها بدءا بالقائد حميدة بن قاسم بن عياد سنة 1203هـ/1788م، إلى آخر فرد فيها وهو محمود بن عياد سنة 1848-1849، ونشير إلى أن هناك وفاق تام بين اليهود والاباضية البربر في عهد مشيختي السمومني وبن جلود، وفي الجهة المقابلة كان اتفاق بين العرب والأتراك⁴.

ورغم تمثيل الدّيات والبايات الأتراك والحسينيين بمشايع وقياد في الجزيرة من عائلات السمومني وابن جلود وابن عياد فإنّها لم ترسخ لسلطتهم بل ثارت عليهم فيما بين سنتي 1599 و1601م، وتضرّرت من غزوة يونس باي سنة 1738م، وعلي برغل صاحب طرابلس سنة 1794م، وزحف بدو عكّارة وورغمّة سنة 1864م، كما تضرّر اقتصادها القائم على التجارة والفلاحة بقرار أحمد باي تحرير العبيد، مما اضطر العديد من العائلات الجربية لمغادرة الجزيرة والاستقرار بتونس العاصمة ورأس الجبل وبنزرت والكاف والقيروان والوطن القبلي ومنطقة الساحل خاصة المهديّة والمنستير، وأصبحوا شتاتا يتعاطون التجارة خاصة تجارة التفصيل، وصار تاجر التفصيل يوصف بـ: "الجربي".

2. مشايخ العزابة والعائلة الحاكمة:

سبق بنو سمومني في حكم الجزيرة مشيخة العزابة، فقد كانت بمثابة المرجعية السياسية فضلا عن الدينية للمجتمع الجربي، واستطاعوا الاستقلال بحكم الجزيرة والامتناع بها عن السلطان أبي اسحاق إبراهيم بإشارة من محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون الذي كان واليا عليها سنة 763هـ/1336م⁵. وقد اعتمدت النظم الادارية في جربة على الأعيان المحليين، وكانوا إما أعيان الدين أو أعيان المال الذين كان يجمع بينهم انتمائهم للمذهب الإباضي الوهبي والمستاوي أو النكاري، ويضيف ليفيتسكي وجود طوائف من الخلفية

¹ - سالم بن يعقوب: تاريخ جربة ومدارسها العلمية، مجموعة سراس للنشر، تونس، 2006، ص252.

² - سليمان الحيلاتي: علماء جربة المسمى رسائل الحيلاتي، تحقيق محمد فوجّة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2001، هامش 4، ص3؛ يوسف الباروني: جزيرة جربة في موكب التاريخ، ص38.

³ - يوسف الباروني: المرجع السابق، ص51-52.

⁴ - محمد المريمي: إباضية جربة في العصر الحديث، مجمع الأطرش للكتاب المختص، ط2، تونس، 2016، ص246.

⁵ - عبد الرحمن ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000.

559/6-560؛ محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية-تاريخها السياسي ودورها في المغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص488.

والنفائية التي اندثرت، كما التحقت فئات أخرى من بني سدويكش وبني صدغيان الكتاميتان مع الوجود الفاطمي في إفريقية¹، وهذه النظم كانت قائمة على "المشيخة" وهو الوضع السائد قبل 960هـ/1553م، إلى غاية سنة 1172هـ/1759م، حين وضع البابليك الحسيني حدًا لحكم العائلات المحلية المتعاقبة على إدارة الشؤون المحلية²، إذ كان كل من شيخ النكار ونظيره من الوهبة يتقاسمان السلطة المحلية في عهد قوة الدولة الحفصية³. فالنكار كان لهم نصف الجزيرة تقريبًا، فقد استحوذوا على شرق ووسط الجزيرة زمن زيارة التجاني لجزيرة سنة 706هـ/1306م⁴، في حين أن الوهبة كانت مواقعهم في غربها وشمال غربها، الذين سيتمدد نفوذهم أكثر فأكثر⁵.

تزامن حكم العائلة السمومنية طيلة الثلاثة قرون مع حضور ثلة من مشايخ جربة، الذين تولوا مشيخة العزابة أو كانوا أعضاء مجلسها، أو أنهم وقفوا إلى جانب بني سمومن، وتركوا بصمة واضحة في زمانهم، أو أنهم عرفوا كمعلمين في مختلف مساجدها المنشورة، وقد تماشت الأسرة السمومنية مع نظام العزابة، أكثر من عائلة بن جلود التي تولت الحكم بعدها⁶، ونحن سندكرهم ذكرًا دون الاسترسال في سيرتهم وسيروهم سوى من اشتهر منهم بعلاقته المباشرة بالعائلة الحاكمة، أو كان له منصب شيخ الحلقة، أو برز في مواقف مشرفة داخليا وخارجيا.

1.2 مشايخ القرن 7هـ/13م:

برز في هذا القرن مجموعة مشايخ في نصفه الأول والثاني بالجزيرة، منهم: سعيد بن أمغار، وأبو عبد الله محمد بن أبي عثمان سعيد الصدغياني، واسماعيل الجيطالي، وعمرو بن جميع، وصالح المغراوي، والشيخ أبو البقاء يعيش بن موسى الزواغي⁷. هذا الأخير وهو أهم الشيوخ⁸، وقد نشأ في بلده بجبل دمر ثم توجه صوب جربة ليتلمذ على يد الشيخ صالح بن نجم المغراوي، وقد نقل الحركة العلمية إلى جامع وادي الزيب، وقد ترك آثارا مدونة منها رسائل وجوابات وقصائد، وتولى مشيخة الحلقة إلى وفاته سنة 750هـ/1349م⁹.

2.2 مشايخ القرن 8هـ/14م:

ظهر في هذه الفترة كل من سعيد السدويكشي وموسى الزواغي وأيوب بن يعيش الزواغي، وأبي عثمان سعيد بن علي يامون، وأبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرادي الدمري الذي كانت تنعقد عنده المشيخة، أي أنه كان شيخ الحلقة خلفا للشيخ يعيش بن

1 - Tadeusz lewicki: Les Ibadites en Tunisie au Moyen âge, bibliothèque de l'Académie polonaise de Rome, p9.

2- محمد المرمي: المرجع السابق، ص25.

3- نفسه، ص68.

4- أبوراس الجبري: المصدر السابق، ص58.

5 - Lewicki: Les ibadites, opcit, p9.

6- فرحات الجعيري: نظام العزابة عند الإباضية الوهبة في جربة، المكتبة التاريخية للمعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1975، ص222.

7- يوسف الباروني: المرجع السابق، ص153.

8- الجعيري: المرجع السابق، ص203.

9- يوسف الباروني: نفسه، ص121؛ مجموعة مؤلفين: معجم اعلام الإباضية (قسم المغرب)، المطبعة العربية، ط1، غرداية، 1999، تر 1038، 1000/4-1001.

موسى الزواغي إلى وفاته سنة 820هـ/1417م¹. وقد نشأ البرادي بجبل دمر وانتقل إلى نفوسة ثم جربة، وكانت له مناظرات مع علماء المالكية بالزيتونة تحت أنظار السلطان أبي فارس عبد العزيز، وقد خلف آثارا قيمة أهمها كتابه: الجواهر المنتقاة².

3.2 مشايخ جربة في القرن 9هـ/15م:

أهمهم: ابنا البرادي وهما أبو محمد عبد الله وأبو عبد الله محمد، وقاسم القاضي اليديسي، والشيخ أبو النما زايد بن عمر اللوغ الصدغياني، مع وجود كل من سليمان بن إبراهيم بن أبي القاسم البرادي، وأبي زكرياء يحيى بن عبد الله البرادي³. ومشايخ الحلقة كانت للشيخ زكرياء بن أفلح الصدغياني (ت 903هـ/1498م)⁴، الذي تتلمذ بجربة وانتقل إلى مزاب وأخذ فيها العلم على أبي مهدي عيسى المليكي، وعند عودته إلى مسقط رأسه تولى التدريس بجامع وادي الزيبب، وكان أبو النجاة يونس بن تعاربت أبرز تلاميذه، وترك مؤلفات عدة⁵.

4.2 مشايخ جربة في القرن 10هـ/16م:

ظهر في هذه الفترة بجزيرة جربة علماء أجلاء منهم: أبو القاسم بن يونس السديوكشي، وسلامة بن يوسف الجنائوني، وزكرياء بن إبراهيم الهواري، وأبو الربيع سليمان بن عبد الله بن أبي زيد الصدغياني⁶، وأبو النجاة يونس بن سعيد بن يحيى بن تعاربت الصدغياني⁷، إلى جانب عبد الرحمن بن أحمد الحيلاتي⁸. وأبرزهم هو الشيخ أبو سليمان داود بن إبراهيم التلاتي الذي ينحدر من أسرة علمية كريمة معروفة إلى اليوم بجزيرة جربة بقرية ثلاث حيث تربى في كنف والده، فحفظ القرآن الكريم بمسجد قريته ثم رحل يطلب العلم بجبال نفوسة ليأخذه من معينه على يدي العلامة أبي زكرياء يحيى بن عيسى الباروني، ثم عاد إلى جربة والتحق بمدرسة جامع مدراحن عند الشيخ أبي زكرياء بن إبراهيم الهواري، ثم رجع مرة أخرى إلى جبل نفوسة ليلتحق بمدرسة الشيخ أبي يوسف يعقوب بن صالح التندميرتي بقرية جناون، وحط رحاله بمدينة القلعة بالجبل الأشم ليدرس علم المنطق والبيان عند الشيخ إبراهيم بن أحمد أبي الحباس بقرية بقالة، وبعد مرحلة الجبل التحق بمدرسة أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي بوادي مزاب، ثم عاد إلى الجزيرة سنة 962هـ/1556م، وانتصب للتدريس بمدرسة القصبين، وانتخب رئيسا لمجلس العزابة بعد وفاة شيخ الحلقة أبو النماء زايد اللوغ الصدغياني، وبذلك يصبح الشيخ أبو سليمان داود التلاتي الرجل الأول في الجزيرة، فكان بمكانة الإمام الساهر على خدمة الدين من خلال مراقبة المدارس وتكوين المشايخ، و ترتيب حلق القرآن والاعتناء بالأوقاف، كما كان يحرص على استقلال الجزيرة وراحة سكانها وخدمة شؤونهم الدنيوية، فهو الذي يتولى الفتوى والفصل في القضايا والحكم في النوازل وذلك في أواخر حكم بني سموين مع مسعود السمويني الذي

¹ - فرحات الجعيري: المرجع السابق، ص 208.

² - صالح الزرويل: اتجاهات الكتابة التاريخية عند مؤرخي الإباضية في بلاد المغرب، أطروحة دكتوراه، إشراف إبراهيم بحاز، جامعة غرداية، 2022، ص 411-419.

³ - الجعيري: المرجع السابق، ص 212.

⁴ - محمد بن زكرياء الباروني: طبقات علماء الإباضية، تحقيق بكر باعمارة، رسالة ماستر، إشراف إبراهيم بحاز، جامعة غرداية، 2020، ص 68.

⁵ - يوسف الباروني: المرجع السابق، ص 154؛ مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، تر 343، 325/2-326.

⁶ - محمد بن زكرياء الباروني: المصدر السابق، ص 70؛ أبوراس الجري: المصدر السابق، ص 94.

⁷ - يوسف الباروني: نفسه، ص 129.

⁸ - الجعيري: المرجع السابق، ص 217-218.

ضيع الجزيرة وتخدق مع أترك طرابلس تارة بقيادة درغوث باشا؛ ثم مع الإسبان تارة أخرى، فكان الشيخ الثلاثي مجاهدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد وقف أمام الطغاة لا تأخذه في الله لومة لائم مما أدى إلى استشهاده في أول جمادى الأولى سنة 997هـ/1560م، على يد الطاغية درغوث التركي بعد سيطرته على الجزيرة واستباحة المال والنفس والعرض فيها، وضريحه بالجزيرة معلوم ومشهور، وهو في جامع سيدي داود المنسوب إليه ويقع في حومة بركوك (مسجد أبي كندة) من عمادة الرياض¹.

للشيخ الثلاثي مؤلفات عديدة أهمها شرح متن الأجرومية في النحو وشرح مقدمة التوحيد لابن جميع، ومرثيتين الأولى في شيخ العزابة بجزيرة أبو النماء زايد اللوغ، والأخرى في شيخه أبي مهدي عيسى المليكي المزابي، ومن أبرز تلاميذه الدارسين عنده بالقصبيين، أبو زيد عبد الرحمان الحيلاتي صاحب الرسائل، وأبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أبي ستة السديوكشي².

3. آل السمومني في سدة الحكم:

عرف جبل دُمّر بالجنوب التونسي استقرارا لسكانيه طيلة العصر الوسيط، ومع بداية العهد العثماني في تونس؛ وتحديدًا بعد سنة 1574م بدأت السواحل تؤمن، وشدد الباي مراقبة القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب، لذلك بدأ الجبل يفقد توازنه الديمغرافي، وبسبب المجاعات والجفاف، توالى الهجرات عن جبل دُمّر المدمّر، وتوجهت شمالا وغربا نحو إفريقية رحلات متتالية تسمى محليا بـ: "الجلوات"، وأفرغ الجبل من عديد من العائلات المستقرة، ومن بينها عائلة "بني سمومن"، و"بني بّراد"، و"بني غربال"، و"بني برزال" حكام قرمونية في الأندلس، و"المانيطيين"، و"المقريين"، و"بني قويس"، و"القلالين"، وهي مجموعات تركت وراءها قصورها وأشهرها جلوة المانيطية.

تنسب عائلة آل السمومني إلى الجهة الجنوبية الغربية للجزيرة، وما والاها من جهة الشمال³، وتحمل بعض العائلات اليوم لقب: بن مومن، وبن ميمون وقد يكون اللقب تحريف للسمومني. وانحدرت منها عائلة بن عثمان في صدغيان، وعائلة بوزكري وعائلة بن مولّي، كما توجد عائلة بوزكري بأجيم⁴، فعائلة بن مولّي وبن عثمان هما فرع من عائلة بوزكري، واسم بوزكري هو كنية للشيخ أبي زكرياء يحيى السمومني.

وبنو سمومن أسرة عريقة في المجد والشرف، والدفاع عن الدين والوطن، اشتهرت هذه العائلة شهرة واسعة، وكانت في زمن التيجاني (706هـ/1306م) تحكم نصف الجزيرة، وقد ذكر (زمباور) في معجم الأنساب هذه العائلة كأسرة حاكمة وسماها عائلة (بني زكرياء)⁵، وهم: أبو يحيى زكرياء وثانيهم ابنه يحيى بن زكرياء، وسعيد وأخوه أحمد وصالح أبناء يحيى بن زكرياء الذين حكموا مشتركين فترة النورمانديين والعثمانيين⁶، على أن هذه العائلة لم تستقل بحكم جربة إلا استقلالاً محلياً، وكانت خاضعة في الغالب ولو

¹ - أوبراس الجري: المصدر السابق، ص93؛ يوسف الباروني: المرجع السابق، ص139.

² - الصادق بن مرزوق: أعلام من جزيرة جربة، مجموعة محاضرات أُلقيت على منبر جمعية صيانة جزيرة جربة، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1994، ص49.

³ - أبو عبد الله محمد التجاني: رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص123.

⁴ - محمد المريمي: المرجع السابق، ص70.

⁵ - علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ (تونس)، مراجعة الحاج سليمان بابيز، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، ط3، السيب، عُمان، 2003، ص596.

⁶ - إدوارد فون زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، دار الرائد العربي، بيروت، 1980، ص118.

اسميا لسلطة عليا¹، وقد وقع الاختيار على الأسرة السمومنية لتسليمها مشيخة الحكم، لكفاءة رجالها وشجاعتهم وشدة تمسكهم بالعقيدة الإباضية الوهبية، وقد تولوا المشيخة أي القيادة السياسية والعسكرية في آن واحد.

وقفت هياكل النفوذ المحلي في جربة المجسدة لنظام العزابة موقفا عدائيا للأتراك، وكانت لهم في المقابل علاقات مع المسيحيين الاسبان²، ولم يكن مشايخ الحكم من آل السمومني إلا جانبا من جوانب ذلك النظام السياسي فاختص هؤلاء برئاسة ذلك النظام، وكانوا يأترون بأوامر مؤسسة "المشيخة" وهيئات العزابة، إذ يقول ابن خلدون: "الوهبية رياستهم ببني سمومن"³، فلم يكن يقدم أمراء السمومني على أمر إلا بعد استشارة العزابة سواء تعلق ذلك الأمر بالسياسة الداخلية مثل: تنفيذ أحكام العزابة من جلد وسجن... الخ، أو السياسة الخارجية من مفاوضات مع السلط الغازية أو الدفاع عن الجزيرة، أو طلب النجدة من بقية الإباضية⁴، من ذلك اجتماع عزابة الوهبية برئاسة أبي النجاة يونس بن سعيد بن تعاريت سنة 916هـ/1510م أثناء هجوم الاسبان على جربة، وتولى الشيخ أبو زكرياء السمومني وأولاده تنفيذ أمر مجلس العزابة، وكبدت الاسبان شر هزيمة واندحروا عن شواطئ جربة بعد أن احتلوا معظم ثغور شمال إفريقيا⁵، وكانت الأجوبة الفقهية والفتاوى الصادرة عن مجالس العزابة ملزمة لرجال السياسة من آل السمومني، وشغل يونس بن تعاريت آنذاك قائدا للجيش الجربي إلى جانب الشيخ أبي زكرياء السمومني ضد حملة الاسبان سنة 916هـ/1510م.

1.3 أبو زيد بن أبي نوح السمومني (ت638هـ/1240م):

شيخ لا يُعرف عنه الكثير، قتله النصارى بعد أن أسروه⁶، ولعله أول من نصبه العزابة لتولي حكم جربة، ويبدو أنه لم يدم في الحكم طويلا. فالمصادر لم تذكره ماعدا الحيلاتي الذي انفرد بذكره في بضع معلومات، وهو بحاجة إلى مزيد البحث عن سيرة حياته.

2.3 أبو عبد الله محمد بن صالح السمومني (ت688هـ/1289م):

ذكره ابن خلدون باسم: محمد بن مهو أو سمّون كشيخ للوهبية، وذكر إلى جانبه يخلف بن امغار كشيخ للنكار⁷، هو أول من دشّن منصب الحكم من عائلة بني سمومن، وكانت توليته سنة 640هـ/1242م، في عهد السلطان أبي حفص عمر (ت694هـ/1295م)، إذا ما تم اعتبار قول الحيلاتي أن محمد السمومني دخل جربة عام 640هـ، وأخذ بزمام الأمور، وقد وقف ضد حملة النصارى الصقليين بقيادة روجار دي لوريا الصقلي Roger de Lauria على جربة سنة 688هـ/1289م واستشهد فيها،

¹ - أبوراس الجربي: المصدر السابق، ص106.

² - محمد المريمي: المرجع السابق، ص159.

³ - ابن خلدون: العبر، 848/4.

⁴ - محمد المريمي: نفسه، ص345.

⁵ - التجاني: المصدر السابق، ص126؛ محمد المريمي: نفسه، ص72.

⁶ - سليمان الحيلاتي: المصدر السابق، ص114.

⁷ - ابن خلدون: العبر، 447/6.

وحينها استطاع النصارى الاستيلاء على الجزيرة¹، وكان شيخ العزابة وقتها هو العلامة أبو البقاء يعيش بن موسى الزواغي (ت 751هـ/1350م).

3. 3 سليمان بن صالح السمويني "الأول" (ت 699هـ/1299م):

هو أخو أبو عبد الله محمد السابق ذكره، ومن الذين تولوا مشيخة الحكم بحرية، وفي عهده هاجم النصارى على جربة، فقاد الجريين في جهادهم، عند محاصرة الجريين لحصن القشتيل أثناء مواجهة الاسبان والصقليين، وسقط شهيدا سنة 699هـ/1299م، بجهة "تاريللا" غرب برج القشتيل². وقد حررها من أيديهم القائد مخلوف بن الكماد بعد أن حاصر القشتيل أعظم محاصرة، إلى جانب المقاومة الشديدة لأهل الجهة، وتدخل الحفصيين في الصراع ودور المدن التجارية خاصة منها بيزا وجنوة في إنهاء الحرب، وذلك عام 737هـ/1336م³.

4. 3 أبو يحيى زكرياء السمويني:

كان من كبار المشايخ في زمانه سنة 835هـ/1432م، وتولى مشيخة الحكم بالجزيرة، وكان الشيخ قاسم بن عبد الله بن القاضي اليديسي، مدرسا بالجامع الكبير، كما كان رئيس مجلس العزابة⁴، ويذكر انه كان خاضعا لنفوذ خير الدين بربروس. وفي عهده نزل ملك أراغون ألفونصو القطلاني على جربة في جيش كبير لكن حملته باءت بالفشل⁵. وكان ذلك في عهد المولى أبي فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي الذي حكم ما بين 1394-1434م⁶.

5. 3 أبو زكرياء يحيى بن سعيد بن أبي نوح السمويني:

من أشهر مشايخ الحكم بحرية، استعان الشيخ يونس بن سعيد الصدغياني بأسرته لكفاءتها السياسية والقيادية، فجمع بين المشيخة والعمالة، أي أنه كان شيخا للجزيرة وعاملها⁷، ويعتبر واسطة العقد في أسرة بني سموين، كما أن أعماله المجيدة وأهمها لما أقامته الجزيرة إمام دفاع، ورد الأساطيل الاسبانية التي احتلت شواطئ بلاد المغرب⁸، أنجب خمسة أبناء، وكان يتزعم عسكريا يتكون من المرابطين والمتطوعين من رعيته ومن رياس البحر، والمرابطين الموزعين على "مساجد الشطوط" في الجزيرة، وكان له خيل وهو المسمى بـ: "خيل الشيخ"، ويتولى الاقتراب من الاسبان، وتأتي بأخبارهم، وكان هذا الجهاز العسكري جزء من نظام العزابة⁹.

¹ - سليمان الحياتي: نفسه، هامش 121، ص 46؛ أبو العباس أحمد بن حسين ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 149؛ محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 273؛ مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، 747/4.

² - سليمان الحياتي: المصدر السابق، ص 49؛ فرحات الجعيري: المرجع السابق، ص 302؛ مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، 419/3.

³ - أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح. وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، ط 2، تونس، 1966، ص 75؛ محمد حسن: المرجع السابق، ص 232.

⁴ - الحياتي: علماء جربة، ص 114؛ سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة، ص 336. الجعيري، نظام، ص 211.

⁵ - الزركشي: المصدر السابق، ص 129-130؛ روبرار برنشفليك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من ق 13 إلى ق 15م، تعريب حمادي الساحلي، ج 2، دار الغرب الاسلامي، ط 1، بيروت، 1988، ص 87.

⁶ - أبو عبد الله محمد ابن الشماخ: الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 116-119.

⁷ - محمد المريمي: المرجع السابق، ص 110.

⁸ - فرحات الجعيري: المرجع السابق، ص 329؛ علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص 597.

⁹ - محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 664؛ مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، 961/4.

في عهده احتل الاسبان بقيادة بيدرو دي نافار Pedro di Navarro جزيرة جربة سنة 916هـ/1510م¹، وهو أمر كان يتوقعه سكان الجزيرة بعد استيلاء القراصنة الاسبان على بجاية والمرسى الكبير ووهران وطرابلس، فاجتمعوا عند الشيخ يونس بن تعاربت (ت 917هـ/1511م)، رئيس العزابة وبحضور الشيخ أبي زكرياء السمويني حاكم جربة، وأخذ الشيخ يدعو الناس إلى الاعتصام بحبل الله وتهوين أمر المشركين والاستخفاف بقوتهم، وعمل الشيخ أبو زكرياء على تسليح الناس وإعدادهم لمحاربة العدو، فتقابل الطرفان في المعركة، وكان الأسطول الاسباني متكونا من 20 ألف جندي، و120 سفينة من القطع البحرية والأساطيل الفرنجية التي تجوب البحر الأبيض المتوسط فتكون منها أسطول ضخم، فقابله أهلها بإيمانهم القوي وبعدهم القليل الذي لا يزيد عن ثلاثة آلاف مجاهد، ونشير هنا إلى المشاركة الفعالة القادمة من وادي مزاب، فقد تدخل الشيخ باحيو بن موسى المصعبي من قصر تاجنينت بفرقته الفدائية من الفرسان المزابيين للنجدة واحتلوا مراكزهم في الصف الوحيد بين إخوانهم الجريين، واستطاع ابنه أبو الربيع سليمان بن أبي زكرياء السمويني ومن معه من الفرسان أن يكون صفا واحد على عرض الجبهة، لا يحل لأحد منهم أن يفكر في التسليم أو الفرار، وأن ينعطف بهم وراء العدو فظنوا أن المسلمين قد أحاطوا بهم، فسرى الارتباك في صفوفهم واستولى الرعب على قلوبهم فألقوا السلاح يلتمسون السبل إلى سفنه، وبذلك استطاع أن يطوق العدو ويقطع عنهم خط الرجعة، فكتب الله لهم النصر².

6.3 سعيد بن سليمان السمويني:

كان شيخ الجزيرة سنة 924هـ/1520م، أبرم معاهد صلح في 25 ماي 1520م، مع القائد الاسباني هيغو دي مونكادا Hugo Don Moncada، الوالي على طرابلس وكان نائب ملك اسبانيا في صقلية³، وقد أرسل إلى الجزيرة جيشا ضخما، وجاءت تلك المعاهدة التي تؤكد هزيمة الشيخ وخضوعه للاحتلال الاسباني لجربة⁴. كان معاصرا للشيخ أبي النما زايد بن عمرو بن اللوغ الصدغياني والشيخ عبد الرحمن الحيلاتي⁵.

7.3 ابن سليمان السمويني:

هو أخو سعيد بن سليمان وكان مباشرا للمشيخة سنة 947هـ/1541م، ويوضح نص المعاهدة التي أبرمت سنة 1541م، بين شيخ جربة ونائب ملك صقلية أن شيخ جربة آنذاك أخا لسعيد بن سليمان السمويني، وهي معاهدة مماثلة للمعاهدة السابقة (1520م)، إذ تنص على الموالاة التامة للإسبان والخضوع لهيمنتهم⁶.

8.3 سليمان بن سعيد السمويني:

¹ - أبوراس الجري: المصدر السابق، ص 105.

² - سالم بن يعقوب: المرجع السابق، ص 220؛ علي يحي معمر: المرجع السابق، ص 598. فيه رسالة من علماء عمان إلى الشيخ يونس التعاربت وأبي زكرياء السمويني، وفيه تهنئة لهذا الأخير على انتصاره على الأتراك، نفس المرجع، ص 222-223.

³ - أبوراس الجري: المصدر السابق، ص 112.

⁴ - سليمان الحيلاتي: المصدر السابق، ص 114.

⁵ - مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، ص 419/3.

⁶ - سليمان الحيلاتي: نفسه، ص 115.

كان شيخ الجزيرة سنة 951هـ/1551م، أمضى معاهدة مع القائد الاسباني هرناندو دي فيكا Hernando de Vega ويتبين من نصها أنها تؤكد المعاهدتين السابقتين اللتين أبرمتا بين الاسبان وسعيد والد سليمان، وأخيه الشيخ صالح السمووني، إذ أن الشيخ يمثل للسلطة الاسبانية ويساندها في مقاومتها لدرغوث، أبرمت هذه المعاهدة في المهديّة في 19 مارس 1551م، وتنص أيضا على احتجاج يحيى بن سليمان من طرف الإسبان كضمان يجبر الشيخ على الالتزام باحترام المعاهدة عند عودته إلى جربة، مات سليمان السمووني سنة 965هـ/1558م، إذ قتله درغوث شنقا في طرابلس¹، وكان شيخ العزابة في فترة حكمه هو عبد الرحمن الحيلاتي².

9.3 صالح بن يحيى بن زكرياء السمووني:

شيخ الحكم في جربة خلال النصف الأول من القرن 10هـ/16م، كان رافضا للوجود التركي في الجزيرة ولاحتيال درغوث وقرصنته لجربة، قاد ثورة ضده بداية شهر جويلية 1550م، عند رجوع درغوث من المهديّة³، تخلى عن المشيخة سنة 953هـ/1546م، إذ خلعه ابنه أبو نوح عنها وسجنه وسمل عينيه، لأن الشيخ صالح كان معارضا للوجود التركي في جربة ورافضا لهيمنة درغوث باشا الذي سيطر على الجزيرة وبسط عليها نفوذه⁴.

أنشأ "جامع الشيخ" في السوق الكبير في القرن 10هـ/16م، وجامع الغرباء في حومة السوق ويسمى بمسجد "برزين" كان إباضيا وتحول إلى المذهب المالكي في القرن 9هـ/15م، ويشير إلى ذلك الشيخ سعيد بن أيوب الباروني النفوسي في مخمسته التي نظمها حوالي منتصف القرن 11هـ/17م إلا أن الجامع أصبح لغير الإباضية وهو إلى الآن مالكي كما أشار إلى تأسيسه من طرف صالح السمووني. وحيث أن عائلة السمووني بها على الأقل شيخان يحملان اسم صالح وهما صالح بن يحيى الذي كان موجودا في 916هـ/1510م، والآخر صالح والد الشيخ سليمان بن صالح الذي كان على رأس المشيخة سنة 699هـ/1300م، لذا فإن الشخص المشار إليه بالقصيدة هو على الأرجح والد سليمان بن صالح وهو من شخصيات النصف الأول من القرن 7هـ/13م، وفي هذه الفترة جددت صومعته سنة 1086هـ/1675م بإشراف غرباء عن جزيرة جربة من عائلة المنيوي المتفرعة من قبيلة الحمامزة بمنطقة مارث والتي عين أحد عمدائها الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي حميد بن الشيخ سيدي أحمد المنيوي على رأس جامع الغرباء قاضيا ومفتيا سنة 1003هـ/1594م⁵، وبالمعلم نقاش بأعلى بدن المنارة بإفريز يدور حول البدن كتب عليه بخط نسخي: بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين. يا محمد غفر الله لمن خلده⁶.

¹ - نفسه، ص116.

² - فرحات الجعيري: المرجع السابق، ص329.

³ - سليمان الحيلاتي: المصدر السابق، هامش 4، ص3.

⁴ - نفسه، ص115.

⁵ - محمد المريبي: المرجع السابق، ص72.

⁶ - نفسه، ص383.

كان رئيس العزابة في زمان صالح السوموني سنة 950هـ/1543م، هو الشيخ داود بن ابراهيم التلاتي، ويقول ابن تعاربت: "ومع ذلك كله فإن الشورى واجتماع العلماء في الرأي عند الشيخ زايد اللوغ بمزراية، ولا يخرج الرأي إلا من عنده، تقديرا له واحتراما لمقامه، لأنه أكبر سنا من الشيخ داود التلاتي"¹.

10.3 أبو نوح بن صالح السوموني:

تولى الشيخ أبو نوح السوموني² مشيخة جربة سنة 953هـ/1546م بعد أن سمل عيني والده الشيخ صالح³، وانقطع ذكره بدءا من سنة 958هـ/1552م⁴، كان أول ولاية درغوث والدولة العثمانية في جربة، أقام الشيخ أبو نوح السوموني علاقات طيبة وروابط مباشرة بينه وبين السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1552م، مستغلا ضعف السلطة الحفصية آنذاك من جهة؛ وإخضاع آل السوموني "أعيان الفريق المضاد" لهم من مستاوة من جهة أخرى، ما يدعو إلى الاعتقاد بأن درغوث باشا هو الذي سعى إلى أن يتمرد أبو نوح على أبيه الشيخ صالح ويعزله من المشيخة ويفتكها منه، وفي 03 ماي 1552م، أهدى أبو نوح للسلطان سليمان القانوني 18 شابا من العبيد السود، دون أن يسلب عليها الضريبة المفروضة عادة على تجارة العبيد، باعتبارها القسط العيني من ضريبة الخراج، وطلب في المقابل شحن حمولة من الحبوب من السواحل العثمانية نحو جربة في ظرف كانت تخضع فيه جربة إلى عوامل مناخية غير ملائمة⁵، إذ ضرب الجزيرة قحط ومجاعة كبيرة في ربيع سنة 959هـ/1552م، وقد كان لأبي نوح حظوة يتمتع بها لدى الباب العالي من خلال الامتيازات التي خصّ بها السلطان العثماني التجار الجربيين، إذ سمح لهم بالإتجار في السواحل العثمانية، بترخيص مختوم من الشيخ، فتمكنت سفن الجزيرة من التزود بالقمح من الموانئ التجارية التركية مباشرة وبكميات غير محددة، وكان ختم الشيخ أبي نوح السوموني كافيا لاقتناء البضاعة، وفي المقابل كان الجربيون مطالبون بدفع ثمن القمح⁶.

11.3 مسعود بن صالح السوموني (ت 967هـ/1560م):

تولى مشيخة جربة سنة 966هـ/1559م بعد الشيخ أبي نوح السوموني الذي أزاح منها والده الشيخ صالح وسمل عينيه وافتك له جربة. وفي فترة حكمه قدم درغوث من طرابلس سنة "960هـ/1553م" بعساكره من الترك وزوارة وأولاد الشبل والسبعة يريد احتلال جربة، ونزل قشتيل الوادي، وأرسل يحيى السوموني حاكم الجزيرة إلى أحمد بن حسن الحفصي يطلب منه حمايته فلم يلتفت إليه لعجزه واختلال أمره، فهجم درغوث باشا ودخل الجزيرة من الساحل القبلي، وتحالف معه أهل مستاوة وعرب الحزم، وتعاون أهل جربة من مستاوة مع درغوث لإخراج النصارى من القشتيل، فاستولى الأتراك على كل تجهيزاتهم وسيطروا على الجزيرة السيطرة المطلقة⁷.

¹ - سالم بن يعقوب: المرجع السابق، ص 398.

² - محمود مقديش: زهة النظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح. علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1988، 142/1؛ محمد المريمي: المرجع السابق، ص 159.

³ - محمد المريمي: نفسه، ص 67؛ فرحات الجعبري: نفسه، ص 275.

⁴ - سليمان الحيلالي: المصدر السابق، ص 115.

⁵ - محمد المريمي: المرجع السابق، ص 68.

⁶ - سليمان الحيلالي: نفسه، هامش 3، ص 2-3.

⁷ - نفسه، هامش 6، ص 5.

فاجتمع أهل جربة الوهبية وخاصة من سدويكش بقيادة الشيخ صالح السمومني وقاتلوا قتالا شديدا في مرسى سدويكش، فانهمز الوهبية واستشهد منهم 1200 شهيد وتفرق الباقون، ومات من الأتراك ومستأوة ومن معهم خلق كثير¹، ورجع درغوث إلى طرابلس، واستعمل عليها عامله مسعود بن صالح السمومني سنة 965هـ/1558م، ورتب فوانينها بعد مقتل الشيخ سليمان بن صالح السمومني على يد أخيه مسعود، والذي كان خاضعا لحكم درغوث باشا حاكم طرابلس²، وقد كان للشيخ أبي داود سليمان بن إبراهيم التلاتي موقف جريء مع درغوث التركي، حين هجم على جربة، قال له: "نحن جماعة العزابة ليس بأيدينا ولا إلينا تولية الأمراء ولا عزلهم في هذا الزمان، فقال له درغوث: بل أنتم حاصرتم مسعودا وأفسدتم البلاد وفعلتم وفعلتم..، فقال الشيخ: ما فعلنا شيئا إلا الخير ولسنا أهل الشر، بل الفساد من قبلك لتقديمك الأسافل وغير ذلك.."³. ولهذا السبب رفض الجرييون قرار درغوث بتعيين مسعود السمومني على مشيخة الجزيرة، و"ثاروا عليه وسجنوه في القشتيل مدة أربعة أو خمسة أشهر، بالعرب وزوارة ومستأوة، فانهمزت الوهبية من برج الوادي الى السبخة وقتل منهم نحو أربعمائة او خمسمائة رجل"⁴، ثم تحرك عليهم درغوث وولى موسى بن جلود أميرا على جربة بعد موت مسعود⁵. ارتكب درغوث في جزيرة جربة من الفواحش ما يتبرأ منه الدين؛ فقد سلب جيشه الأموال وقتل الأنفس البريئة، وسبى النساء والأطفال، وهكذا قضى درغوث على أبطال الجزيرة وعلمائها، وكان في من قتلهم درغوث علامة زمانه الشيخ أبو سليمان داود بن ابراهيم التلاتي الذي استدعاه درغوث باشا للتشاور فيما ينفع الناس، فذهب إليه بعد أن أمّنه على حياته لكنه غدر به مرة أخرى وأعدمه بعد أن قال له كلمة الحق ورفض تبعية جربة لطرابلس، ودفن ليلا ببركوك خوفا من أن يتعفن جسده قبل أن يصل إلى تلات، وذريته اليوم ببني ديعت قرب جامع قوجيل⁶.

طرد درغوث باشا الشيخ مسعود وعائلته من الجزيرة، فاتصل هذا الأخير بالحاكم الاسباني لحلق الوادي وهو ألفونس دي كويفا Alphonse de Cueva وعرض عليه المساعدة، ولما احتل الاسبان الجزيرة سنة 967هـ/1560م⁷، أبرم معاهدة معهم تنص على خضوع الجريين لمملكة اسبانيا وتخليه عن راية درغوث الخضراء، وسلّم بموجبها قلعة برج الكبير قرب حومة السوق، وقدم ولاءه للراية الاسبانية وتعهد لها بالطاعة، وقبلهم دفع ضريبة سنوية مقابل تخليه عن بقية مناطق الجزيرة واستقلاله فيها⁸، وتشير المصادر إلى أن مسعود السمومني لم يبع جربة للإسبان وإنما وقع معهم معاهدة استسلام، وسلّم لهم حصن القشتيل نظرا لضعف الجريين في ذلك الوقت، ولم يكونوا وحدهم فدلوا أخرى في المنطقة استسلمت لهم.

وفي سنة 967هـ/1560م نزلت عمارة للنصارى على جربة، واقتتل المسلمون مع النصارى ودخل الشيخ مسعود السمومني وقاتلهم قتالا عظيما في موضع يسمى: آذروم بحومة بوملال (مزار سيدي سالم، يقع شمال شرق حومة السوق)، فقتل منهم ما لا يحصى

¹ - نفسه، ص 6.

² - أبوراس الجري: المصدر السابق، ص 112-113.

³ - سالم بن يعقوب: المرجع السابق، ص 168.

⁴ - عبد الله الباروني: رسالة سلم العامة والمنتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاش، مصر، 1906، ص 216.

⁵ - أبوراس الجري: المصدر السابق، ص 114.

⁶ - محمد المريمي: المرجع السابق، ص 317.

⁷ - Ch. Monchicourt: L'expédition Espagnole de 1560 contre L'île de Djerba, Thèse complémentaire pour le doctorat ès lettres, présentée a la faculté des lettres de l'Université" de Paris, 1913, p103.

⁸ - محمد المريمي: نفسه، ص 68.

عددا ثم صالحهم وأدخلهم برج القشتيل، وأقاموا فيه نحو سبعة أشهر، فنزلت على جربة عمارة من السلطان العثماني بقيادة درغوث باشا وحاصرتهم نحو شهرين وأخذوهم¹.

كما أن الجريين من مستاوة ساعدوا درغوث في حربه ضد الاسبان وبالذات في معركة 1560 ولعبوا دورا حاسما في الانتصار.. وبعد ذلك بنى درغوث برجا بجماعم القتلى الاسبان بعد أن مثّل بهم، وهذا يحرمه ديننا الحنيف ولم يرض الجريون بذلك، ولم يشاركوا فيه لأنهم أصحاب دين ومبادئ وهذا يحرمه الاسلام لذلك امتنعوا².

أمام مقاومة الجريين لكل قوة استعمارية استعمل الطاغية درغوث كل الوسائل لكسر شوكتهم المتمثلة خاصة في نظام العزابة فأدخل الأعراب خاصة من طرابلس إلى الجزيرة لتغيير الوحدة الديمغرافية، وحاول القضاء على الإباضية بإدخال العنصر الحنفي الذي لم يكن موجودا أصلا، وشجع المالكية ضد الإباضية واعتبر جربة أرض شرك فتحت عنوة، وسنّ عشرات القوانين لتحقيق ذلك؛ منها مثلا أداء مجحف على كل عقار يمتلكه إباضي، وإذا انتقلت ملكيته إلى مالكي أو حنفي يواصل الإباضي دفع الأداء في حين يعفى الآخرون من كل أداء.. بلغت وقاحة الطاغية درغوث إلى اعتبار دية الإباضي أقل بكثير من دية المالكي والحنفي، بل هي نصف دية اليهودي، كل ذلك لأنهم إباضية رافضون للاستعمار التركي البغيض؛ في حين أن الإباضية قبل ذلك اعتبروا أن المسلمين إخوة وساعدوه هو ومن قبله ومن معه من الأتراك لأنهم مسلمون بقطع النظر عن مذهبهم.

واستمرت أحداث التاريخ تذكر بني سموين في مشيخة جربة باختيار العزابة إلى سنة 997هـ/1589م، حين توفي آخر شيخ من هذه الأسرة وهو الشيخ مسعود السمويني (ت1560م) على برّ الجزيرة، كما تم إعدام ابن عمه سليمان بن يحيى عند استسلام حصن القشتيل³، الذي جمع في حكمه للجزيرة بين اختيار العزابة، واختيار الدولة التركية، وبعد وفاته أسندت المشيخة إلى أسرة أبي جلود⁴.

4. علماء عائلة السمويني:

كانت عائلة السمويني معروفة بالسياسة أكثر من العلم، ورغم توارث الحكم بين أفرادها أبا عن جد إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور أفراد منها اشتهروا عن دوايب الحكم والإدارة، وآثروا خدمة الدين والعلم والمجتمع، وإن لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أسماءهم، ويبدو أنهم كانوا قليلين إلا أن لهم دور بارز وبصمة في تاريخ جربة العلمي وحركتها الفكرية، منهم: الشيخ الهمام أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن سليمان المغربي الجربي المدني البازيمي السمويني، شيخ من كبار شيوخ عزابة جربة، عاش في القرن 10هـ/16م في جربة بحومة بازيم، وهو جد عائلة المدني ببازيم، أخذ مبادئ القراءة في الجزيرة ثم سافر إلى تونس فدرس العلوم في جامع الزيتونة، ثم ذهب إلى مصر سنة 916هـ/1510م، ليدرس بجامع الأزهر العريق، فدرس بالمدرسة الإباضية وبمدرسة الجيعانية ببولاق على الشيخ أبي

¹ - سليمان الحياتي: المصدر السابق، ص9.

² - نفسه، ص9.

³ - Ch. Monch: opcit, p136.

⁴ - علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص596.

الحسن بن إبراهيم الكيداني المصري، وقد تبحر في جميع العلوم وخاصة العقلية منها وعلم المنطق¹، ثم رجع إلى الجزيرة واشتغل بالتدريس بمدرسة الجامع الكبير، وترك مؤلفات هامة منها شرح كتاب الإيساغوجي للشيخ أثير الدين الأبهري في المنطق، واشتهر بشرح سليمان الجري، وحاشية المختصر للتفتازاني، والكتاب مطبوع، وكان علماء الزيتونة بتونس يستهلونه للتدريس لأنهم لم يجدوا أحسن منه، كما ترك تلامذة منهم: زين الدين بن أحمد الجيزي (ت 979هـ/1569م)²، توفي الشيخ سليمان المدني رحمه الله في آخر القرن العاشر تقريباً³.

5. المنجزات الحضارية والعمرائية لعائلة آل سمومن:

1.5 مسجد القصبيين:

يقع المسجد في قلالة في جزيرة جربة أو اقلالين بالأمازيغية، التي تعتبر رمز الأصالة وروح الهوية الجربية الأمازيغية الإباضية، فقد حافظت على الأمازيغية لغة والإباضية مذهباً، ولهذه القرية ثمانية مساجد وهي: القصبيين، الزيب، الخواي، ياتي، المجلس، الحاجية، أبو مسور، القبليين، وأقدمها تاريخياً هو مسجد "ياتي" المستاوي، وأحدثها في الإنشاء هو جامع القبليين، ولكن من بين هذه المساجد كان مسجد القصبيين أكثرها نشاطاً علمياً، إذ أنه كان مدرسة علمية ومحل اجتماع مجلس العزابة ومجلس الحكم بالجزيرة خلال القرن 10هـ/16م، ويرجع بناء هذا المعلم إلى منتصف القرن 4هـ/10م، وقد اشتهر شعبياً بجامع "القرعونية" إلا أن المشايخ وأصحاب السير سموه بالقصبيين نسبة إلى الحومة التي يتربع فيها، وبرز إشعاعه العلمي على الجزيرة وبلاد المغرب كجامعة علمية خلال القرن العاشر الهجري مع الشيخ أبي سليمان داود بن إبراهيم التلاتي المذكور آنفاً.

لم يكن جامع القصبيين في البداية سوى بيت صلاة صغير به محراب، وخلال العصر الحديث تم إنشاء المسجد الجديد بجانب المسجد القديم وذلك سنة 1950م، ثم كانت هناك توسعة كبرى سنة 1971م، ليتخذ المسجد شكله الذي يُعرف عليه اليوم، حيث أقيمت فيه أول صلاة جمعة بإمامة الشيخ حمودة التيواجني، ثم خلفه من بعده الشيخ سليمان بن ميمون، ثم الأستاذ لسعد الجاسوستي، و اليوم أمانة المسجد بيد الشيخ فوزي الجاسوستي. ومسيرة الإصلاح والإنشاء والتحسين لا زالت مستمرة؛ فقد قامت هيئة المسجد بتوسعة كبرى في السنوات الأخيرة ليتحول المسجد إلى مركب ثقافي إسلامي، يشع بنوره على ربوع قلالة الممتدة منذ خمسة قرون.

2.5 جامع برزين (الغرباء):

يقع جامع الغرباء بمدينة حومة السوق حالياً، وكان يتبع خمس مطكديس الذي يجمع والغ وتويرت ويني باندو وبوملال سابقاً، وكان في القديم من المساجد الإباضية وتم تأسيسه حوالي القرن 7هـ/13م من قبل أحد مشايخ بني سمومن التي كانت تحكم جربة في فترة زمنية سابقة وهو الشيخ صالح السمومني، وكان في القديم يحمل اسم جامع برزين لأن عائلة برزين هي من اهتمت بشؤون المسجد في تلك الفترة، والعائلة متواجدة حالياً بوالغ، وفي القرن 9هـ/15م أصبح على المذهب المالكي بأمر من الباي ظلماً وبهتاناً

¹ يحيى حاج امحمد: جهود علماء المغاربة في خدمة اللغة العربية من خلال التراث المخطوط- حاشية سليمان الجري على مختصر التفتازاني نموذجاً-، مجلة الباحث، ع09، أبريل 2012، جامعة باتنة، باتنة، ص93.

² نفسه، ص97-98.

³ يوسف الباروني: المرجع السابق، ص99.

لضرب الأمن الداخلي للجزيرة، وبث الفتنة بين الجرابة وإرباك نظام العزابة، وقد تم تجديد صومعته في سنة 1086هـ/ 1675م من قبل بعض من الغرباء عن جربة بتلك الفترة لذلك يسمى الجامع إلى الآن بجامع الغرباء.

3.5 جامع الشيخ:

يقع هذا المعلم الديني العريق بحومة السوق، التي أسسها الشيخ أبو مسور البهراسني في أوائل القرن 4هـ/10م لقضاء الناس حاجياتهم الدينية والدنيوية، فهي مكان إداري وتجاري ومركز للفتوى والتقاضي وعاصمة لجزيرة جربة¹، وقد أنشأه أبو عفيف صالح بن يحيى بن سليمان السمومني سنة 955هـ/1548م²، وكان والده الشيخ يحيى قد شارك في هزم الإسبان على ساحل الجزيرة الشرقي يوم 24 جمادى الأولى سنة 916هـ/1510م، وتولى توسيعه سنة 1028هـ/1620م ثلاثة من شيوخ العزابة، وهم: الشيخ أبو الفضل قاسم بن سعيد اليونسي، والشيخ أبو زيد بن سليمان بن أبي زيد الصدغياني، والشيخ أبو الفلاح الياس بن داود الهواري³، وأسسوا فيه مدرسة علمية لا يزال التدريس بها قائما إلى وقتنا، وقد أقيمت فيها عدة دروس، كما وأن أول صلاة جمعة أقيمت فيه بأمر من الأمير موسى بن سعيد بن جلود، وذلك يوم الجمعة الأولى من شهر صفر سنة 1079هـ/1668م، أي بعد وفاة الشيخ سليمان بن عبد الله بن أبي زيد-رئيس مجلس العزابة- بعام ونصف، بإمامة مشايخ اليونسي إذ هم كتاب أمراء بن جلود ثم خلال العصر الحديث أشرف على إمامة الجمعة فيه الشيخ أحمد الباروني الحشاني، ثم تلاه الشيخ عياد التغلات القشعيني، وجاء بعده الشيخ قاسم فوجعة الذي أشرف مع الشيخ سالم بن يعقوب على توسعة المسجد عام 1399هـ/1979م، حسبما هو مكتوب بأرضية الصحن شرقي بيت الصلاة، وسنة 1411هـ/1991م بإشراف الشيخ قاسم بن عمر فوجعة الإمام الخطيب، وممن خطب فيه: الشيخ محمد بن أحمد الباروني والشيخ علي بن محمد بن سليمان الباروني، ويقول الشيخ يوسف بن أحمد الباروني في كتابه "جزيرة جربة في موكب التاريخ" حول عملية توسيع جامع الشيخ :

كما شهد جامع الشيخ توسعتين في عهد إمامة الشيخ حميدة بايحي، وقد تحول جامع الشيخ خلال القرن العشرين ليصبح مركز الفتوى عند إباضية جربة من خلال مجلس ليلة الخميس بإشراف الشيخ سالم وكانت لهم رسائل وردود مع إخوانهم عزابة مزاب ولم يكتف جامع الشيخ بدوره الديني فحسب فقد كان له دور اجتماعي فهو المقصد المفضل لإقامة عقود الزواج عند إباضية شمال الجزيرة ليوم الناس هذا.

خاتمة:

لم يتم التعرف على جميع أفراد أسرة بني سمومن الحاكمة والعلمية، كما لم يتم تحديد وترتيب فترة حكم المعروفين منهم - حسب الجعبيري-، والأمر منوط بالمؤرخين لمزيد البحث في المصادر والمخطوطات للوقوف على تاريخ العائلة العلمي والسياسي.

¹ - سالم بن يعقوب: المرجع السابق، ص235.

² - أبوراس الجريبي: المصدر السابق، ص97.

³ - نفسه، ص98.

حاولت العائلة السموونية إحياء نظام الإمامة، تأسيا بالإمامة الإباضية في طرابلس ونظيرتها في تاهرت، فبذلك اختلفت الأزمنة والأمكنة لكن الهدف المسطر واحد، رغم غياب السلطة الروحية المتمثلة في نظام العزابة عن الأولى والثانية فقد كانتا إمامتي ظهور، إلا أن الثالثة لم تحد عنها وعن ظلها، ويمكن القول بأن العائلة كانت الجسد وأن نظام العزابة كان بمثابة روحه الذي تحيي به.

إن كانت إمامة العائلة الرستمية إمامة ظهور وشراء، فإن إمامة العائلة السموونية قد جمعت بين إمامة الظهور السياسي وإمامة الدفاع وإمامة الشراء وهي من مسالك الدين الأربعة عند الإباضية، وبالرغم من عدم إمكانية المقارنة بين العائلتين زمانا ومكانا وظروفا، إلا أنه يمكن القول أن عائلة بني سموون سارت على خطى بني رستم، في محاولة حكم الدولة الصغيرة، ومدّ نفس الإباضية لمدة أطول، تحت رعاية العزابة ونظامها.

رغم هنات بعض أفراد العائلة السموونية، إلا أن التاريخ الإباضي عموما لم يسلم منها منذ بدايته، تلك الزلات التي تمثلت في طمع الحكم وما ينجر عنه من حب الأملاك والتملك، باستعمال كل الوسائل المتاحة، بالموالاة للغير وإظهار التبعية له، كالأسيان والعثمانيين، أو حتى الوقوف الى جانب غير الإباضية ضد بني جلدتهم.

فرمانيا؛ فإن الفترة التي فاقت الثلاثة قرون، دلّت على الانسجام التام بين مشيخة العزابة ورئاسة العائلة، الشيء الذي أطال عمرها وبقائها، والانفصال عن السلطة الروحية يعجل بالزوال والاندثار. أما مكانيا؛ يمكن القول بأن جربة مثلت دولة داخل دولة، ضمن نسيج جغرافي استراتيجي، تكالب عليها العدو قبل الصديق، ودينيا؛ ورغم كون المذهب الإباضي هو المذهب الرسمي للجزيرة، إلا أن العدو النصراني الاسباني والصقلي لم يكن ليفرق بينه وبين المذاهب الأخرى، والصليب هدفه الأول والأخير، في حين سعى بعضهم تدفعهم العصبية المذهبية المتوارثة للعمل على القضاء عليه بشتى الصور والطرق، بالاضطهاد تارة، وبال حرب تارة أخرى، وبتشويه وتغيير ملامح العمران الديني أحيانا أخرى. أما من جهة الفراد؛ ورغم أمازيغية وإباضية حكام عائلة السمووني، إلا أن ذلك لم يشفع لهم من التنصل من المال الحرام عند بعضهم من فرط حب السياسة والرئاسة، أدى ذلك إلى بعض الاغتيالات بتواطئ خارجي عامة، رغم وقوف مشايخ العزابة ضدهم وضد تصرفاتهم. ورغم أن الحكم عند العائلة ملكي وراثي، وهو يتعارض مع مبدأ الشورى، إلا أننا لم نلمس معارضة من مشيخة العزابة التي كان الحكم يسير تحت إمرتها، وقبول الابن الجديد خلفا لوالده، كانت تحت أنظارها وبرضاها.